

النظريات المعاصرة في الجغرافيا السياسية

نظرية المساحة الوسطية: زبيغينو بريجنسكي

في كتابه " رقعة الشطرنج الكبرى " يستشهد بريجنسكي . الذي عمل مستشارا للأمن القومي الأمريكي تحت إدارة الرئيس كارتر . بوضوح بأطروحات ماكيندر و سبيكمان: " المحور *Le Pivot* " يمثل اليوم رقعة الشطرنج الكبيرة هذه ذات الشكل البيضوي و الذي تتم عليها " لعبة " الهيمنة العالمية. و هي اللعبة التي تحتل فيها الولايات المتحدة الأمريكية، بفضل تواجدها السياسي و العسكري على كامل المنطقة الهامشية لأوراسيا، مكانة هامة و مهيمنة، من جهة الغرب . في أوروبا . و في الجهة الجنوبية ، في الشرق الأوسط . و من الناحية الشرقية . مع كوريا و اليابان . فواجب و وظيفة الجيوإستراتيجية الأمريكية . أي الإدارة الإستراتيجية للمصالح الجيوبوليتيكية . أن تميل إلى الحفاظ على هذه المواقع و التخلص من أي خطر يخرج الولايات المتحدة، ما يعني تهميش كارثي لأمريكا. فالعمل الواجب القيام به في هذا الاتجاه حيال روسيا و الصين هو الاحتواء و الاستباق. لكن يجب على الولايات المتحدة أن تناور بمعية فاعلين جيوإستراتيجيين ثلاثة آخرين و هم: فرنسا و ألمانيا و الهند، و كذا مع " خمسة محاور جيوبوليتيكية " هي: أوكرانيا، تركيا، أذربيجان، إيران و كوريا الجنوبية.

أكد المنظر الأمريكي " بريجنسكي " في كتابه رقعة الشطرنج الكبرى على أهمية أوراسيا الإستراتيجية، حيث وصفها بمنطقة المحور الجيوبوليتيكي للقارة الآسيوية على اعتبارها مجال نفاذ للمناطق الآسيوية المهمة، وحاجب الموارد عن اللاعبين الاستراتيجيين في قارتي آسيا وأوروبا، باعتبارها نقطة ارتكاز أساسية في تنفيذ مشروع القيادة العالمية، وقد أستندت هذه الرؤية على حقيقة تاريخية تمثلت في تطلع الأمبراطوريات القديمة مثل الأمبراطورية الرومانية والصينية، والمغولية الى التوسع وتحقيق النفوذ العالي بمحاولات سيطرتها على هذه الرقعة الجغرافية الهامة من العالم.

تعزى لهذا الطرح يوضح " بريجنسكي "، أن الرهان الرئيسي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية هو السيطرة على أوراسيا التي تمتد من أوروبا الغربية حتى الصين تكون فيه آسيا الوسطى المنطقة الاستراتيجية الأكثر أهمية المتحكممة في هذا المجال الجغرافي الرحب، وفق هذا المنظور فان أي توسع من الغرب الى الشرق ومن الشرق نحو الغرب لابد أن يمر عبر تلك المنطقة باعتبارها منفذ استراتيجي للقارة الأوراسية، وبذلك فهي أحد مفاتيح العقائد الجيوسياسية والجيواستراتيجية لأوراسيا التي تسمح بفرض الهيمنة الشاملة على المستوى الكوني، فاذا كان الهدف في نظره من بسط النفوذ على أوروبا الغربية والوسطى هو تحييد بناء الوحدة الأوروبية المنافس الجيو اقتصادي القوي للولايات المتحدة

الأمريكي واعتبارها القطب الأكثر تحركا في الجهة الغربية الأوراسية، فإن الهدف من السيطرة على آسيا الوسطى إضافة إلى القوقاز سوف يمكن الأمريكيين من التوغل في منطقة تتضمن استراتيجية إسلامية تعد مفصلة نسبيا عن الحضارة الغربية الأوروبية، كما يسمح السيطرة على هذا المجال الجغرافي التحكم في العمق الحيوي والاستراتيجي لروسيا والعالم السلافي - الأرثوذكسي باعتباره من المناطق الأكثر أهمية في العالم. ويرى " بريجنسكي " أن موقع آسيا الوسطى الجغرافي يجعل منها جسرا يربط بين الشرق والغرب، ومن ثم فإن تلك المنطقة تكتسب أهمية جيوبوليتيكية كونها تربط الجهتين الأكثر ثراء ونشاطا في شرق أوراسيا وغربها.

بالرغم من أن بريجنسكي ابتعد عن المسؤوليات الرسمية منذ أكثر من ثلاثين سنة، إلا أن ما يقوله و ما يكتبه ما زال يحظى باهتمام واسع و منقطع النظير في الأوساط النخبوية المؤثرة في صناعة القرار في السياسة الخارجية الأمريكية. هي أفكار، ترسل في صورة لا شعورية، يجد فيها الكثير من الساسة وحيا جديدا بعد الابتعاد الذي كان ميزة خلال حرب العراق و مرحلة شيوع و قوة فكر المحافظين الجدد، سواء تعلق الأمر بالتقارب الواضح مع الهند أو اختراق منطقة بحر قزوين، أو نشر القوى في آسيا الوسطى، وأكثر من هذا و ذاك كله التقارب الأخير مع إيران من خلال اتفاق جنيف حول السلاح النووي الإيراني، والذي من حمايته وصل الحد بالرئيس باراك أوباما بتهديد الكونغرس باستعمال الفيتو في حال قرّر هذا الأخير تمديد العقوبات على إيران.

المدرسة الروسية

ألكسندر دوغين (الأوراسية)

بحكم خصوصية روسيا الروحية وجوهرها الثقافي التاريخي المتميز كما يرى عالم الجيوبولتيك الروسي " ألكسندر دوغين "، فإن هذه الدولة تسعى إلى الحفاظ على تميزها أمام تحديات الغرب وتقاليده الشرق رافعة شعار " لا الشرق ولا الغرب بل أوراسيا "، وهو ما يجعلها تتمتع باستقلالية وهوية ذات طبيعة خاصة، وبما أن روسيا هي المحور الجغرافي للتاريخ فإن مصالحها الإستراتيجية لا تنفصل عن الأراضي الأوراسية التي تضم شرق أوروبا ووسط آسيا والقوقاز، فبسط هيمنة الروس على هذه الأقاليم الجغرافية، يعد بمثابة المبدأ المؤسس والمحدد لأفاق الجيوبولتيك للدولة الروسية الراسخ في سلوكها والمرتكز على الفكر التوسعي الإمبراطوري القديم. ونتيجة لهذا الرهان الجيوسياسي وبحكم موقعها الجغرافي الهام سواء في الحقبة القيصيرية أو السوفيتية أعتبرت تلك الأقاليم من الناحية التاريخية كحاجز صد إستراتيجي في مواجهة التهديدات الخارجية، حيث كانت وفق عقيدة الأمن القومي السوفييتي بمثابة الخاصرة الجنوبية للإتحاد التي يتوجب حمايتها من أي تأثيرات وتدخلات خارجية، التي تعني

المساس بسيادة وأمن الدولة السوفيتية، وعلى هذا الأساس فقد حددت هذه العقيدة خيارات صناع القرار السوفيات تجاه تلك المنطقة سواء بممارسة ضغوطات سياسية أو اقتصادية أو عسكرية على جمهورياتها السابقة، للحد من تأثيرات التدخلات الخارجية، ومن ثم الحفاظ على المصالح السوفيتية وإبقائها ضمن مجال نفوذ روسيا الفدرالية.

بعد إنقضاء فترة غير طويلة في السياسة الخارجية الروسية أطلق عليها نقادها تسمية توجهات رومانسية موالية للغرب، برز تيار فكري بقيادة ألكسندر دوغين يدعو روسيا إلى انتهاز دور خارجي أكثر إثباتا للوجود يحمل صبغة سلافية واضحة، حيث يركز هذا الدور أكثر على الطابع القومي لحماية مصالح الروس خارج حدود دولتهم، وقد أطلق على هذا التيار تسمية بالفكر الأوا رسي الذي يركز على ضرورة توجه الدولة الروسية نحو أوراسيا كخيار يطرح نفسه بصيغة سوفيتية جديدة وقد يشكل هذا الخيار ليس فقط المخرج الأقل صعوبة من أجل أن تستقر روسيا الفدرالية على هوية حضارية جديدة، بل قد يكون المجال الذي تستطيع فيه التحرك بحرية وبشكل فعال، بحيث يتوجب على الروس الحضور القوي والمناورة الواسعة في المجال الأوراسي الذي يشمل مجموعة الدول المستقلة حديثا، والذي يمكن روسيا من أن تصبح الدولة المحورية في النظام الدولي الجديد، وأن تكون فاعلا في هذا النظام من موقع قوة.

وقصد استعادة روسيا الاتحادية لدورها الديناميكي على المستوى العالمي، ركز دوغين على أولوية البعد الجيوبولتيكي في توجهات سياستها الخارجية في فترة ما بعد الحرب الباردة، فحسب هذا المنظور فإن ترك المجال للتوسع الغربي وبالأخص التغلغل الأمريكي نحو القارة الأوراسية سوف يقلل من فرص حضورها في مجالاتها الحيوية التقليدية، ومن ثم حرمانها من لعب دور محوري في تفاعلات النظام الدولي الجديد. وتعزيزا لتلك النظرة يرى هذا المنظر، بأن تطبيق الفكر الجيوبولتيكي وتجسيده على أرض الواقع كعقيدة تتحكم في السلوك الروسي الخارجي سيفضي لا محالة إلى إحياء النفوذ العالمي للروس، ويعيد التوازن الإستراتيجي مع الغرب الذي تم خرقه لصالح الأطلسية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، وبناءا على هذه الرؤية الجيوبولتيكية ينصح "دوغين" صناع القرار في روسيا بضرورة بعث فكرة عالم الجيوبولتيك البريطاني "ماكندر" حول المحور الجغرافي للتاريخ الذي تكون فيه روسيا الاتحادية قلب الأرض الجديد، الأمر الذي يمكنها من السيطرة على الأرض المحورية في الكتلة القارية الأوراسية.

وعليه فإن مهمة روسيا حسب هذا المنظور تتلخص في تعزيز الاتجاهات الدافعة نحو المركز وإبقاء هذه

المنطقة وكل المناطق الواقعة في مجالها الجنوبي تحت السيطرة الإستراتيجية الروسية على نحو إقامة بنيان راسخ يعتبر امتدادا للتقاليد الجيوسياسية لروسيا القيصرية والسوفيتية التي كانت تحافظ دوما على نفوذها ووجودها الإستراتيجي من خلال نظام رقابة مرن ومتنوع العناصر، ويستند هذا التصور على إدراكات واقعية تحتم على القادة الروس الانتباه لها، تتمثل في إيجاد صيغة واضحة لمفهوم العدو أو الخصم الجيوسياسي كعنصر رئيسي في البيئة الجيوبوليتيكية الجديدة لروسيا، ومن الواضح أن العدو الرئيسي في هذه البيئة هو الأطلسية أو الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية.

ويرى دوغين بأن رصد النزعة الجيوبوليتيكية تجاه أو روسيا تكمن أساسا في ثقافة الروس التوسعية، بحيث يستندون إلى تجاربهم التاريخية المطبوعة بديناميكية وتطلع الشعب الروسي إلى التوسع والإعمار الحضاري، فالشعب الروسي يحمل رسالة عالمية تجعله يتحرك بصورة منظمة من أجل بناء إمبراطوريته القديمة التي كانت تضم مزيجا من الأقوام والثقافات والأقاليم، ويؤكد هذا الطرح أحد الجيوبولتيكين الروس "غوميليوف ليف" بإقراره أن الشعب الروسي لا يقتصر على العرق السلافي، بل يشكل خليط من الأعراق جعلته يكتسب خصوصية، فالتمازج بين السلاف والأتراك على سبيل المثال يبرر النزعة الروسية لإعادة نفوذها في الجمهوريات الإسلامية المأهولة بالعرق التركي، فإحياء تاريخ الإمبراطورية القيصرية والسوفيتية في المنطقة لابد أن يراعي ذلك التمازج العرقي الذي يشكل التاريخ الروسي المتحكم في توجهات السياسة الروسية، والمحدد لهوية هذه الدولة ومصيرها في هذا المجال الحيوي. وكنتيجة لذلك تبنى التيار الأوراسي في أفكاره الجيوبولتيكية الهوية كمسألة جوهرية، إذ توجد علاقة وطيدة بين النزعة القومية وتوسع الروس في أوراسيا خلال قرون طويلة من تاريخ بناء إمبراطوريتهم.